د. حمزة أحمد حداد
بريد الكتروني: info@aiadr.com
عمان – الأردن 2011/8/29

الإسلام في القران وفي ما دونه: الطبري في تأويل القرآن

أولاً/ مقدمة

التأويل هو التفسير، وهذا هو أحد المعاني اللغوية لكلمة تأويل. ولا يتم اللجوء للتفسير عموماً إلا إذا كان هناك غموض بالنسبة لمسألة من المسائل. فالمقصود من عنوان هذا البحث إذن، تفسير (الغامض من) القرآن الكريم كما ورد في القرآن ذاته من ناحية، بالمقارنة مع ما ورد في ما هو دونه من ناحية أخرى. أما عبارة "في ما دونه"، فتعني أي كتابة أخرى غير ما ورد في القرآن ما دام أن تلك الكتابة ليست من عند الله أو من لدنه، بخلاف القرآن. وبالتالي، فإن مثل هذه الكتابة هي ما دون القرآن وأقل مرتبة منه مهما حاول البعض، كائناً من كان، تزيينها أو إحاطتها بلباس قد يصل حد القدسية. إذ كما يقول المثل، شتان ما بين الثرى والثريا. وإذا تنازع الأمران (القرآن وما دونه)، فتكون الأولوية بالتأكيد للأعلى مرتبة أي للقرآن. واخترنا لهذا البحث، التركيز على **جزئية** بسيطة من كتاب الطبري بعنوان "جامع البيان عن تأويل أي القرآن"[(1)] ويتكون من (30) جزءاً تقع في حوالي سبعة آلاف صفحة أو يزيد على ذلك. **وهذه الجزئية**، هي المقدمة التي أوردها الطبري في كتابه المذكور، وأسماها (خطبة الكتاب)[(2)].

ثانياً/ موقف القرآن من تأويله

وقبل التطرق لمقدمة الطبري المذكورة، نشير الى ما ورد في القرآن الكريم نفسه حول تأويله أو تفسيره. ومن ذلك بشكل خاص الآية 7 من سورة آل عمران وجاء فيها "**وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنّا به كل من عند ربنا**". ونشير أيضاً للآية 53 من سورة الأعراف التي جاء فيها "**هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق ....**". ولعل من المفيد أن نشير كذلكَ للآية 39 من سورة يونس، ووردت بعد آيتين تشيران للقرآن، وجاء فيها "**بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ....**". ويدل السياق الظاهر لهذه الآيات، والله أعلم، على أن تأويل (الغامض من) القرآن الذي لا يعلمه إلا الله، آت في يوم من الأيام (المستقبلية) إلا أنه لا أحد يعلم متى، والذي قد يكون يوم القيامة أو يوم (لحظة) وفاة كل إنسان على حدة. ولكن من المؤكد أنه في الحاضر المستمر "لا يعلم تأويله إلا الله"، وأن أي تأويل من بني

---

(1) طبعة دار الفكر العربي، بيروت، 1988، الجزء الأول ويطلق عليه فيما بعد بـ "الطبري".

(2) الطبري، ج1، ص 3-47.

البشر هو نوع من الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً. حتى الراسخون في العلم، كما تقدم، لا يعلمون تأويله وإنما يقولون "...... **آمنّا به كل من عند ربنا**".

وربما هذا هو أحد الأسباب الرئيسة لقول القرآن **"قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً"**[(3)]، وقوله **".... فأتوا بسورة من مثله فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة..."**[(4)]. والإخبار بهذه الحقيقة المطلقة حول القرآن، **ليس لروعة البيان فيه أو دقته أو ما شابه ذلك (فحسب)**، إذ أن إنسانا ما أو مجموعة بشر، قد يضعوا كلمات تتمتع بهذه الصفات من روعة ودقة وغير ذلك من وصف حميد، **وإنما يكمن أيضا في تأويل هذه الكلمات** إذا وردت في القرآن، والذي **"لا يعلم تأويله إلا الله ...."** في حين أن البشر يعلمون بطريقة أو بأخرى تأويل كلماتهم. وتكون المقارنة عندئذٍ بين كلمات نعلم أو يمكن أن نعلم تأويلها، وهي كلمات البشر، وأخرى لا يمكن أن نعلم تأويلها مهما أوتينا من علم راسخ، وهي الكلمات التي وردت من عند الله أو من لدن حكيم خبير في القرآن العظيم. فلا وجه للمقارنة إذن بين كلمات معلومة التأويل، وأخرى (لا يعلم تأويلها إلا الله...)، ويستحيل عندئذ إعداد كلمات بمثل كلمات القرآن، حتى لو اجتمعت الإنس والجن على ذلك وكان بعضهم لبعض ظهراً.

ومع ذلك تعددت الكتابات البشرية، قديمها وحديثها، من كتب وأبحاث أسهبت في (محاولة) تفسير الغامض من جمل أو كلمات القرآن، أو تأويل جزء منها مثل آية أو سورة أو أكثر من الآيات والسور، في الوقت الذي يقول فيه القرآن **".... لا يعلم تأويله إلا الله..."** فكيف ذلك؟ ألا يمكن تفسير هذا الأمر إلا أنه محاولة، عن قصد أو غير قصد، للاعتداء على علم الله؟ وكانت نتيجة ذلك عملاً، أن وقعت تلك العبارات في تخبّط واضح واجتهادات متناقضة في التفسير، قد تصل إلى حد القول أن تلك الكتابات أو بعضها على الأقل، مدسوسة قصدا وبسوء نية على الإسلام للإساءة له وللطعن به، ويصعب قبول الادعاء أن ذلك تم عن حسن نية، خاصة من قبل شخص يفترض أنه عالم ويكاد علمه يحيط بكل شيء، مثل الإمام الطبري.

ثالثاً/ تبجيل الطبري

ونضرب مثالا على ذلك من تفسير الطبري في مقدمته، وهو من أقدم كتب التراث في تفسير القران، حيث قام بإملائه على تلامذته خلال السنوات من 283 إلى 290 هجرية. ومما قيل حول التعظيم من شأن الطبري وتفسيره، **أنه الأمام المفسر، المقرئي المحدث، المؤرخ، الفقيه، الأصولي، من أكابر الأئمة المجتهدين. حفظ القران وهو إبن سبع سنين وصلى بالناس (أي إماما) وهو ابن ثماني سنين، وكتب الحديث وهو إبن تسع سنين. جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من عصره، وكان حافظاً للقرآن، عارفاً بالقراءات، بصيراً بالمعاني، فقيها في أحكام القرآن، عالما بالسنن وطرقها، وصحيحها**

---

(3) سورة الإسراء، آية (88).

(4) سورة البقرة، آية (24).

وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفا بأقوال الصحابة والتابعين من بعدهم من الخالفين في الأحكام، ومسائل الحلال والحرام، عارفا بأيام الناس وأخبارهم، وكتابه في التفسير كان يبلغ (ابتداء) ثلاثين ألف صفحة، واختصره في نحو ثلاثة آلاف صفحة، ولم يصنف أحد مثله، حتى قال أحدهم: لو سافر رجل الى الصين حتى يحصل له على كتاب تفسير الطبري، لم يكن ذلك كثيرا. وقال غيره: أنه نظر في تفسر الطبري من أوله لآخره، فلم يجد أعلم منه (أي من الطبري) على أديم الأرض. وقالوا بشأن منهجه في التفسير أنه اعتمد على طريقة الإسناد الدقيقة، وأمانة الإسناد، وتجنب التفسير بالرأي، والاستعانة بعلم الله، والإكثار من الأحاديث النبوية، والاستشهاد بالشعر، وتسجيل القراءات، ومناقشة الآراء الفقهية. وبالجملة، فإن الطبري هو رأس المفسرين على الإطلاق، وأنه جمع في تفسيره بين الرواية والدراسة، ولم يشاركه أحد في ذلك، قبله ولا بعده(5).

إذن نحن أمام شخص راسخ في العلم، لا يوجد له مثيل في ذلك (على الأقل في عصره) حسب ما كتب عنه. فماذا يقول هذا العالم الفذُّ في مقدمة تفسيره التي تقع في حوالي (43) صفحة أسماها "خطبة الكتاب"؟ وماذا نستنتج من هذا القول؟

رابعاً/حديث "القراءات السبع" ومعناه

أسهبت "فاتحة الكتاب" للطبري، في الحديث عمّا يعرف لدى المسلمين بـ"القراءات السبع" للقرآن، المختلف بعضها عن بعض حسب ما أوحت لنا به كتب التراث. وقد أسند الطبري وجود هذه القراءات المختلفة، كما ذهب غيره قديما وحديثاً، لحديث نسبه للنبي (ص) عن سبعة رواة متتاليين، آخرهم عبد الله بن مسعود(6) الذي عاصر النبي (ص). يقول ذلك الحديث (**"أنزل القران على سبعة أحرف، لكل حرف منها ظهر وبطن، ولكل حرف حد، ولكل حد مطّلع"**)(7). وهذا الكلام الغامض المعقّد وغير المفهوم للإنسان السويّ، أوجد له الطبري تفسيراً في حديث أيضا نسبه للنبي بالقول أن السبعة أحرف تلك، جاءت **"من سبعة أبواب من الجنة ...."** وهي ، باختصار، باب الجنة **الأول** للأوامر، و**الثاني** للنواهي، و**الثالث** للحلال، و**الرابع** للحرام، و**الخامس** للإيمان بمُحْكَم القرآن، و**السادس** للتسليم بمتشابهه والإقرار بأن كلا (المحكم والمتشابه) من عند الله، و**السابع** للاعتبارات بأمثاله، والاتعاظ بعظاته. وأضاف الطبري بأن هذه الأحرف السبعة "*هنّ لغات سبع، في حرف واحد وكلمة واحدة باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني*"(8). وهو أيضا كلام غير مفهوم ولا يقل غموضاً وتعقيداً عن الأول. وبعد ذلك،

---

(5) الطبري، ج1، ص 3-6.

(6) وهؤلاء الرواة من الأحدث إلى الأقدم على التوالي، هم عبد الله بن مسعود، أبو الأحوص، واصل بن حيان، **عمن ذكره**، مغيرة، جرير بن عبد الحميد، محمد بن حميد الرازي.

(7) وقد ورد مثل هذا الحديث، مع اختلاف في بعض الكلمات أحياناً، على لسان مختلف واضعي كتب التراث، ومن ضمنهم البخاري ومسلم في الصحيحين.

(8) الطبري، ج1، ص 25.

حاول الطبري نفسه تفسير حديث النبي (ص) من جهة كلمات "*الحد والظهر والبطن والمطّلع*" حسب اجتهاده الشخصي دون أي سند، فجاء تفسيره ضبابياً ربطه من حيث النتيجة، بعلم الغيب يوم القيامة من حيث العقاب والثواب(9)، حيث يكون الطبري بهذا التفسير الشخصي الذي حلّق فيه لما وراء الطبيعة، قد أراح واستراح.

وتفسير الطبري للقراءات السبع بالقول ***"هن لغات سبع في حرف واحد وكلمة واحدة، باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني"***. هو كمن يقول أن الزوج والزوجة والإبن هم ثلاثة في واحد، ولكن الخلاف بينهم هو خلاف باللفظ فقط، الأول: الزوج، والثاني: الزوجة، والثالث: الابن، ولكنهم مع ذلك واحد. ويضرب لنا الطبري مثالاً على ذلك، بقوله أن الأمر هو كقول قائل: هلمّ، وأقبل، وتعال، وإليّ، وقصدي، ونحوي، وقربي، ونحو ذلك مما تختلف فيه الألفاظ بضروب من المنطق، وتتفق فيه المعاني وإن اختلفت بالبيان به الألسن. ونستدل من هذا الكلام (وغيره) بوضوح أنه حسب الطبري، يمكن استبدال كلمة بأخرى في القرآن ما دام المعنى واحدا. ولقطع دابر أي مناقشة محتملة في هذه الكلمات العائمة، أقحم الطبري النبي (ص) والصحابة في المسألة مباشرة، كما سنرى بعد قليل. **فهل يقبل أي مسلم مؤمن بدينه، بمثل هذا القول الذي يؤدي إلى تغيير في القرآن؟**

خامساً/ موقف النبي والصحابة

ولو اكتفى الطبري بذلك لقضي الأمر دون حاجة لتعليق أكثر مما ذكر. ولكنه حاول جاهدا وبتكرار واضح، المرة تلو الأخرى، إقناع القارئ بأمثلة عملية متشابهة أو متكررة لما تعنيه القراءات السبع التي نسبها للنبي. ويزج في أمثلته، أسماء تواترت فئات مسلمة كثيرة، حسب ما ورد على لسان واضعي كتب التراث، على أنهم من كبار الصحابة أو حتى محاطة بهالة تكاد تكون مقدسة، مثل عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وزيد بن الأرقم، وأبيّ بن كعب، وعروة بن الزبير وابن عمر وبعض كتاب الوحي (رضي الله عنهم). والمتمعن في تلك الأمثلة بموضوعية وبعيدا عن العواطف، يخلص لإحدى نتيجتين: **الأولى**- أن ما أورده الطبري هو كلام غير صحيح، ولا يجوز تصديقه. **الثانية** – أن كلامه صحيح، وبالتالي فإن القرآن الذي بين أيدينا ليس من عند الله أو، على الأقل، يمكن تبديل بعض أو حتى كثير من كلماته ما دام المعنى واحداً، مثل كلمات هلمّ، وتعال، وأقبِل، التي أشار إليها الطبري، ويبقى مع ذلك قرآنا ولا حرج في ذلك، في الوقت الذي يقول فيه قرآننا الذي لا يساورنا أدني شك بأنه من عند الله، بأنه **"... لا مبدل لكلماته...."**(10). وقبل أن يتبنى أحد وجهة النظر هذه أو تلك، مع ما يترتب على ذلك من نتائج، نشير إلى بعض ما ذكره الطبري في هذا الشأن.

يقول الطبري بأن رجالاً كان أحدهم عبدالله بن مسعود اختلفوا في قراءة إحدى سور القرآن. فانطلقوا إلى النبي حيث وجدوا عليا يناجيه. فقالوا للنبي أنهما اختلفا في قراءة تلك السورة، **فاحمرّ وجه النبي** ، وقال "إنما أهلك من كان قبلكم باختلافهم بينهم". ثم أسرّ

(9) الطبري، ج1، ص 32.
(10) الأنعام، الآية 115؛ الكهف، الآية 27.

إلى عليّ شيئا، فقال لهم عليّ أن النبي يأمركم أن تقرؤوا كما عُلـِّمتم[(11)]. وفي مثل آخر مشابه (عن عبدالله بن مسعود أيضاً)، أن رجلين اختلفا في قراءة سورة وقال كل منهما هكذا أقرآنيها النبي. وعندما ذهب أحدهما للنبي وأخبره بالأمر، **تغير وجه النبي** قائلا "اقرؤوا كما عُلـِّمتم .....". ونتيجة ذلك، كما يقول الطبري، أن كل واحد من هؤلاء الرجال، قام وهو يقرأ على غير قراءة صاحبه[(12)]. وفي أمثلة أخرى من الطبري، جاء قوم للنبي يسألونه عن اختلافهم في قراءة القرآن، وكان عليّ إلى جانبه. **فسكت النبي** وقال عليّ "ليقرأ كل إنسان كما عُلـِّم، كل حسن جميل"[(13)].

وفي معرض تعليقنا على ذلك نتساءل، لماذا يتغيّر وجه النبي بوجه عام وأحيانا يحمرّ وجهه الكريم عندما يأتيه اثنان من صحابته، ويقول له كل منهما أنك أقرأتني القرآن على وجه آخر، مغاير لما أقرأته لصاحبي، فما هو الصحيح؟ وماذا يعني ذلك؟ ولماذا يُسرُّ النبي إلى عليّ كلاماً ليس بسرٍّ أصلا ليقوله عليّ للأشخاص المختلفين بالقراءة، أي اقرؤوا كما عُلـِّمتم؟ أين هو السر في هذا الكلام؟ ولماذا، في المثال الآخر الذي ذكره الطبري، يسكت النبي ويترك الكلام لعليّ بعبارة: "ليقرأ كل إنسان كما عُلـِّم، كل حسن جميل"؟

ومن بين ذلك، يأتي دور عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في أمثلة الطبري، ويذكره في أكثر من موقع مشابه. وفي إحدى هذه الروايات، أن عمر سمع هشام بن حكيم يقرأ **سورة الدخان**، غير القراءة التي تعلـّمها عمر من النبي (ص). وبعيداً عما في هذه القصة من حركات مثيرة وأقوال متسرعة صادرة عن عمر (إن صحت)، **مثل شد هشام من ردائه، وقوله له "كذبت" قبل التحقق من الأمر المعني، <u>انطلق عمر به يقوده</u>** (كما جاء في الطبري) إلى النبي. وعندما تحاجّا أمامه، بقراءة كل منهما لما علـّمه إياه من **سورة الفرقان** (وهي هنا الفرقان وليس الدخان[(14)])، واختلاف القراءتين عن بعضهما، قال النبي لكل منهما "هكذا أنزلت". ولتكملة الأمر عن عمر، ذكره الطبري في مثال آخر مشابه، ولكن بسند من الرجال مختلفين عن الرواية الأولى[(15)]. وكانت نتيجة هذه الرواية،

---

(11) الطبري، ج1، ص 12.

(12) الطبري، ج1، ص 12.

(13) الطبري، ج1، ص 12 و 13.

(14) كما ورد في الطبري. وربما يكون ذلك من قبيل الخطأ الطبيعي ليس أكثر. وبالرجوع لكتب تراثية أخرى، من الواضح أنها الفرقان.

(15) والسند في الرواية الأولى جاء **عن** يونس بن عبد الأعلى **عن** ابن وهب **عن** يونس **عن** ابن شهاب **عن** عروة بن الزبير **عن** المسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن القارئ **عن** عمر (وكان غريمه فيها هشام بن حكيم) **عن** النبي (ص). وفي الرواية الثانية جاء السند **عن** احمد بن منصور **عن** عبد الصمد بن عبد الوارث **عن** حرب بن أبيّ ثابت من بني سليم **عن** اسحق بن عبدالله بن أبي طلحة، **عن** أبيه عن جده، **عن** عمر (وكان غريمه فيها رجل مجهول في الرواية)، **عن** النبي (ص).

أن عمر عندما سمع النبي يقول لأحد القراء بصحة قراءته، ولعمر بصحة قراءته بالرغم من اختلاف القراءتين عن بعضهما، ما قاله الراوي من أنه **"وقع في صدر عمر شيء".** فعرف النبي ذلك في وجهه. وفي رواية ثالثة قال **"يا عمر إن القرآن كله صواب، ما لم تجعل رحمة عذاباً، أو عذاباً رحمة"**، وضرب على صدره قائلاً "أبعد شيطاناً" ثلاث مرات[(16)].

ونذكر مثالا آخر عن الصحابي أبيّ بن كعب (رضي الله عنه) حيث اختلف مع آخر في قراءة القرآن. وعندما قرأ الآخر في حضرة النبي ، قال النبي له "أحسنت"، فقال أبيّ للنبي : "انك اقرأتني كذا وكذا"، فقال له "وأنت قد أحسنت". عندها قال أبيّ للنبي **مع ما يدل على الاستهجان أو التعجب والشك** "قد أحسنت، قد أحسنت"!! فضرب النبي (ص) بيده على صدر أبيّ قائلا "اللهم اذهب عن أبيّ الشك"، ففاض أبيّ عرقاً وأمتلأ جوفه فرقاً. وفي رواية أخرى، قال أبيّ **"وقع في نفسي من التكذيب، ولا إذ كنت في الجاهلية"**. وفي رواية ثالثة قال **"وجدت في نفسي وسوسة الشيطان حتى أحمرّ وجهي"**. وفي رواية رابعة قال **"دخلني من الشك في أمر رسول الله صلي الله عليه وسلّم، ما دخل فيّ من أمر الجاهلية**[(17)].

وتختلف (بعض) **عنعنات** السند في كل رواية عنها في الروايات الأخرى. *ففي الرواية الأولى*: **عن** أبي كريب **عن** يحيى بن آدم **عن** اسرائيل **عن** أبي اسحق **عن** فلان العبدي *(نسي الطبري اسمه)* **عن** سليمان بن صرد **عن** أبيّ بن كعب **عن** النبي (ص). *وفي الرواية الثانية:* **عن** أبي كريب **عن** ابن نمير **عن** إسماعيل بن أبي خالد (وحدثنا عبد الحميد بن القناد) **عن** محمد بن يزيد الواسطي **عن** إسماعيل **عن** عبدالله بن عيسى **بن** عبد الرحمن بن أبي ليلى **عن** جده **عن** أبيّ بن كعب **عن** النبي (ص). *وفي الرواية الثالثة*: **عن** يونس بن عبد الأعلى **عن** ابن وهب **عن** هشام بن سعد **عن** عبيد الله ابن عمر **عن** عبد الرحمن بن أبي ليلى **عن** أبيّ بن كعب **عن** النبي (ص). *وفي الرواية الرابعة*: **عن** محمد بن عبد الأعلى الصنعاني **عن** المعتمر بن سليمان **عن** عبيد الله بن عمر **عن** سيار أبي الحكم **عن** عبد الرحمن بن أبي ليلى **عن** النبي (ص).

وهكذا تتكرر مثل هذه المشاهد ولكن مع أشخاص آخرين، **مع وجود اختلاف في العنعنات.** وبالرغم من اختلاف قراءات القرآن بينهم، إلا أن كلها صحيح حسب روايات الطبري وما ساقه من أمثلة على ذلك. وكل هذه الروايات والأمثلة تنسب في النهاية للنبي (ص)، في محاولة من الكاتب لقطع الطريق على كل مشكك بصحتها، أو حتى التفكير

---

(16) وهذا الحديث على لسان عمر ورد أيضاً في صحيح البخاري حوالي خمس مرات، وهي الأحاديث ذوات الأرقام 2286 و4706 و4754 و6537 و7111، وفي صحيح مسلم مرة واحدة على الأقل في الحديث رقم 818 مع اختلاف كلمات هذه الأحاديث عن بعضها أحياناً.

(17) الطبري، ص 15-18.

بذلك. ولكن الشك في دين الإسلام وقرآنه ونبوة محمد (ص)، كما جاء في روايات الطبري، دخل في صدر العديد من الصحابة رضى الله عنهم أمام النبي مباشرة. فهذا عمر "وقع في صدره شيء"، وأبيّ بن كعب وقع في نفسه التكذيب والشك ووسوسة الشيطان في رسول الله، كما ذكرنا سابقاً.

ويلاحظ أن الطبري في رواياته ركز على أبيّ بن كعب بالنسبة للتشكيك في صدق النبي (ص) ونبوّته. ونعلم من كتب التراث، بأن أبيّ كان من كتّاب الوحي، وهو أول هؤلاء الكتّاب من الأنصار بعد قدوم النبي (ص) للمدينة، وهو سيّد القرّاء وسيد المسلمين وأقرأ الصحابة لكتاب الله. فالشهادات حول أبيّ إذن، تؤدي إلى التشكيك بالقرآن نفسه ما دام أن أبيّ أحد كتبة الوحي القرآني. وسنرى بعد قليل، أن الطبري يشكك في القرآن على لسان كاتب آخر من كتّاب الوحي. فماذا يعني مثل هذا التشكيك؟ وهل هو مقصود فعلاً؟ أم جاء ببراءة مثل براءة الأطفال؟ بل ما هي النتيجة التي تعود علينا من مثل هذه الروايات؟

سادساً/ أسانيد الطبري

ومما يلفت النظر في سند الطبري من شخص لآخر حتى وصول الأمر للنبي (ص) وما يرافقه أو يعقبه من حديث شريف عنه، أن الطبري يشير للسند أحياناً دون إسمه، كقوله مثلا أن "واصل بن حيان" **حدّث "<u>عمن ذكره</u>"**، أي أنه حدّث عن شخص مجهول الهوية. ومثال ذلك أيضاً قوله "فلان العبيدي". فهل فلان هو الإسم الأول للشخص، أم "فلان" تعني أن إسمه مجهول أو غير معروف، كقول القرآن الكريم **"يا ليتني اتخذت فلاناً خليلا ....."**. وقد رجعت إلى بعض معاجم التراث، فلم أجد أحداً باسم "فلان"، مما يعني أنه مجهول الهوية، **وهو ما أكده الطبري نفسه بقوله "ذهب عني اسمه"**، أي أن الطبري نسي اسمه، ومع ذلك قبل إسناد حديث شريف عنه. فكيف ذلك؟ وأحيانا كان يورد الطبري في أسانيده اسم السند من مقطع واحد، أو باللقب دون ذكر اسمه، كالقول "أبو" أو "ابن". ومثال ذلك (أبو الأحوص، أبو موسى، إبن حميد، عنبسه، أبو اسحق، أبو ميسرة، زر، إسرائيل، أبو حازم، أبو بشار، أبو أسامة، أم أيوب، الأعمش، إبن وهب، أبو يزيد، إبن أبو عديّ، خزيمة، زبيد، سفيان، شريك، عبادة، عبد الوارث، ليث، مغيرة، مهران، المقبري، محمد). وبعد أن يورد الطبري الإسم على هذا النحو، نجده في وقت لاحق يضع الاسم (أو اللقب) ذاته مع إضافة مقاطع أخرى له، بحيث لا ندري فيما إذا كان الإسمان واحداً، أم أن كلاً منهما مختلف عن الآخر. مثل (أبو كريب) الذي ورد لاحقا باسم (أبو كريب محمد بن العلاء)، وإسم (زر) الذي ورد لاحقا بإسم (زر بن حبيش)**(18)**.

يبدو من الصعب إيجاد عذر للطبري على ذلك، إلا أن تكون الأسماء مشهورة في التراث والفكر الإسلامي، قديمه وحديثه، بحيث أنها ليست بحاجة إلى تعريف بأكثر من ذلك، مثل عمر أو ابن الخطاب، أبو بكر أو الصديق، عثمان أو ابن عفان، علي أو ابن

---

(18) وبالتأكيد، فإن الباحث الجدّي في بعض كتب التراث المعنيّة، ولكن ليس القارئ العادي، يمكنه الوصول لمعرفة بعض هذه الأسماء وصفاتهم وأحوالهم، مثل كتب الطبقات المختلفة، والفهرست لابن النديم، ومعجم الأدباء لياقوت.

أبي طالب، أبو هريرة، بن عمر. أما غير ذلك من أسماء أو نحوها، فمن غير المقبول الاعتماد على اسم من مقطع واحد، للوصول إلى معلومة دينية هامة تتعلق بدستور الأمة، أي القرآن الكريم، وما قد يؤدي إلى التشكيك فيه وفق ما هو مبين سابقا ونتابعه تالياً.

سابعاً/ تشكيك الطبري في القرآن وفي كتّاب الوحي

على أية حال، قد يقول البعض في تبرير ذلك للطبري ولغيره من واضعي كتب التراث الآخرين، وهم كثر، بأن اختلاف القراءات القرآنية هو مجرد اختلاف في التشكيل واللهجات، مع بقاء كلمات القرآن كما هي مثل كلمة "(**مالك**) يوم الدين" في سورة الفاتحة يقرؤوها البعض "**ملك** يوم الدين"، أو كلمة "(**هيت**) لك" في سورة يوسف، يقرؤها البعض "(هئت) لك"، وهكذا.

ولكن هذا القول، مع أنه غير مقبول أيضاً لطعنه بالقرآن الكريم، ليس كذلك فعلاً، وإنما هناك تبديل لكلمات القرآن، ووضع كلمة محل أخرى. ومثال ذلك كما يقول الطبري أن شخصاً إسمه أنس[19] ، كان يقرأ أية في القرآن (من سورة المزمّل) بقوله "إن ناشئة الليل هي أشد وطأ **وأصوب** قيلا". فقال له بعض القوم: يا أبا حمزة، إنما هي **وأقوم وليس أصوب،** فقال لهم "**أقوم وأصوب وأهدى واحد** ". والمعنى واضح، أنه من الممكن تبديل كلمة بأخرى من كلمات القرآن. ومن هذا القبيل أيضا، أن شخصاً اسمه محمد كان يقرأ في القرآن "إن كانت إلا **صيحة** واحدة" من سورة يس، في حين كان ابن مسعود يقرأ "إن كانت إلا **زقية** واحدة..."[20].

وهناك أمثلة كثيرة من هذا القبيل واردة في خضمّ كتاب الطبري، منها مثلا الآية 9 من سورة الفتح، وتقول "**لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقّروه....**". وحسب الطبري، فإن البعض قرأها "لتؤمنوا وتعزّروه وتوقّروه"، والبعض قرأها "ليؤمنوا ويعزّروه ويوقّروه". والصواب برأيه أن هاتين القراءتين معروفتان وصحيحتا المعنى، فبأيتهما قرأ القاريء فمصيب [21]. وتضيف الآية بقولها "**وتسبحوه بكرة وأصيلاً**....". حيث يقول الطبري عن بعض القراءات أن الآية هي "..... **ويسبّحوا الله** بكرة وأصيلا"[22]، أي بزيادة كلمة (الله) وتغيير كلمة "وتسبّحوه". ومنها أيضا، قول القرآن في الآية 2 من سورة الحجرات عبارة "**أن تحبط أعمالكم**" في حين، وهي قراءة عبدالله

(19) وعلى الأغلب، فإنه أنس بن مالك (أبو حمزة).

(20) الطبري، ج 1، ص 22-23.

(21) الطبري، ج 26، ص74.

(22) ما سبق، ص75.

(يبدو أنه عبدالله بن مسعود) **"....فتحبط أعمالكم"**(23)، أي بحذف كلمة "أن" من القرآن، وغير ذلك كثير مما يطول الحديث فيه.

ويزيد الطبري في تشكيكه بوحدة القرآن بقوله أن أحد كتاب الوحي كان يملي عليه النبي: سميع عليم أو عزيز حكيم، وغير ذلك من خواتم الآيات. ثم يشتغل عنه النبي لبعض الوقت، ويعود له ثانية بعد ذلك. وعندما يسأله كاتب الوحي: أعزيز حكيم أو سميع عليم أو عزيز عليم؟ فيجيبه النبي (ص) **"أيّ ذلك كتبت فهو كذلك"**. فكان ذلك الكاتب بعدئذ يقول "أن محمدا وكل ذلك إليّ، فاكتب ما شئت"(24). وهنا يتدخل المنسوب إليه قول هذه الرواية، وهو سعيد بن المسيب، ليقول بأن هذا الذي ذكر هو من الحروف السبعة. ونفهم من ذلك بجواز تبديل كلمات القرآن الكريم على النحو المذكور. على أية حال، لم يذكر لنا الطبري اسم كاتب الوحي ذاك، إلا أنه يقصد به على الأرجح، شخص اسمه عند واضعي كتب التراث "عبدالله بن أبي سرح" شقيق عثمان بن عفان بالرضاعة، الذي ارتد عن الإسلام بعد اكتشافه عدم صحة الوحي (من وجهة نظره)، وأنه هو الذي كان يكتب (أو بمعنى أصح يؤلف) القرآن لمحمد (ص). وبعد فتح مكة، وكان دمه مهدوراً بسبب ردّته والسيف أقرب لرقبته من حبل الوريد، عاد بن أبي سرح لحظيرة الإسلام، وفق ما يذكر لنا واضعو كتب تراثية أخرى(25)، على تفصيل لا شأن لنا به في هذا المقام.

ثامناً/ ظروف حديث القراءات وأسبابه

وما ذكرناه عبارة عن عيّنة بسيطة تكاد لا تذكر من الأمثلة التي فيها تغيير وتبديل في كلمات القرآن حسب قول الطبري. كل ذلك تحت باب أو عنوان حديث غير مفهوم كما تقدم، تم إسناده للنبي (ص) من أن القرآن أنزل على سبعة أحرف. فكيف جاء هذا الحديث؟.

في إحدى رواياته وهي كثيرة، يقول الطبري على لسان النبي ***"أقرأني جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستزيده، فيزيدني، حتى انتهى إلى سبعة أحرف"*** . وفي رواية أخرى، أن جبريل وميكائيل أتيا النبي (ص) حيث **جلس جبريل على يمينه وميكائيل على يساره**، فطلب منه جبريل قراءة القرآن على حرف واحد **فطلب ميكائيل من جبريل استزادته**، فزاده إلى حرفين. وبناءً على طلب ميكائيل في الاستزادة، المرة تلو الأخرى، وصلت قراءات القرآن الكريم إلى ستة أو سبعة أحرف، لا يعرف الراوي، وهو أبو كريب

---

(23) ما سبق، ص120.

(24) الطبري، ج 1، ص23.

(25) وتزخر تلك الكتب بهذه القصة من الطبري في تاريخه، وكتب التاريخ الأخرى وغيرها، حتى وصولها لبعض كتب السنن المتضمنة لأحاديث النبي ، ومن ذلك سنن الدارقطني، دار المعرفة، بيروت، 1966، الحديث رقم 292، والمستدرك على الصحيحين للنيسبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990، الأحاديث ذوات الأرقام 4360 – 4362، ومعرفة السنن والآثار للبيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج6، ص205. ومن الملفت للنظر، أن كتب السنة النبوية بما فيها الصحاح، قبلت إسناد العديد من الأحاديث النبوية عن طريق عبدالله بن أبي سرح (كاتب الوحي المرتد حيناً من الدهر).

والشك منه في ذلك. وقد ورد الأمر في سجال بين جبريل وميكائيل دون تدخل من النبي .وفي رواية ثالثة أن جبريل جاء النبي فقال له النبي إني بعثت إلى أمة أميين، منهم الغلام والخادم والشيخ الفاني والعجوز. فقال جبريل "فليقرؤوا القرآن على سبعة أحرف"(26). هنا نجد في هذا الحديث، كما في الحديث الأول، **السجال بين النبي وجبريل مباشرة دون تدخل ميكائيل**.

وفي مختلف الروايات التي أوردها الطبري عن النبي (ص)، كان الهدف الظاهر من القراءات السبع، هو التخفيف على أمة الإسلام من القراءة على حرف واحد. ويحق لنا أن نتساءل: أين هو التخفيف على الأمة بقراءة "ملك" بدلاً من "مالك"، أو قراءة كلمة "زقية" محل كلمة "صيحة"، أو بإضافة اسم الجلالة "الله" لآية لا يوجد فيها هذا الاسم؟ وغير ذلك في كل آية من الآيات التي أورد الطبري بأن لها قراءة أخرى غير قراءة القرآن الحقيقية؟ ويزداد الأمر دهشة عندما نعلم يقينا أن هذا القرآن، إنما يقرأ بالعربية من أمم وأقوام لا يعرفون العربية أصلاً، وهم كثر، ويحظر عليهم قراءته إلا بلغته الأصلية التي لا يفهمون كلمة منها. فأين التخفيف عليهم؟ ونضيف إلى ذلك القول، أننا منذ ما يزيد على (14) قرنا، وبعد وفاة النبي (ص) بوقت قليل، نقرأ القرآن على حرف واحد بالإجماع، دون تغيير أي كلمة أو حتى حرف واحد فيه. ولو قرأ أي واحد منا مهما بلغ رسوخ علمه آية قرآنية بطريقة تختلف عما ورد في قرآننا، ولو بكلمة واحدة، لقمنا بتصحيح قراءته. فإن لم يقبل، نعتبره مرتداً وقد يؤدي ذلك إلى قطع عنقه، حتى لو أثبت لنا بما لا يدع مجالا للشك، أن تلك القراءة هي من الأحرف السبعة التي قال بها النبي كما نسبها إليه الطبري وغيره، والتي كان يقرأها عمر بن الخطاب، وعبدالله بن مسعود، وأبي بن كعب، وأحد كتاب الوحي مثل عبدالله بن سرح وغيرهم، وأن كل ذلك كان يتم في حضرة النبي. وهنا نكرر التساؤل السابق: أين هو التخفيف علينا؟

تاسعاً/ لا حجة مع التناقض

لا شك أن واضعي كتب التراث سيجدون مبرراً لذلك، بما يسمونه بإجماع الأمة على هذا الأمر، منذ جمع عثمان بن عفان القرآن على حرف واحد، وهي قصة أخرى يطول الكلام فيها وتخرج عن نطاق بحثنا. وأن أمة محمد النبي (ص) كما يقولون، لا تجمع (أو تجتمع) على ضلالة حسب ما ورد في حديث تمت نسبته أيضاً للنبي. ولكن نرد على ذلك بالقول، أنه إذا ما صحت رواية السبعة أحرف، وهي رواية مجمع عليها أيضاً، تكون كل رواية من الروايتين المجمع عليهما مناقضة للأخرى، في حين أن المبدأ المشهور والمعمول به في الفقه الإسلامي، وحتى في القضاء قديماً وحديثاً، أنه **"لا حجة مع التناقض"**، مما يترتب عليه وجوب إزالة هذا التناقض. وللقيام بذلك، لا بد من التخلّي عن إحدى الروايتين: قرآن مختلف عليه بسبب السبعة أحرف، وقرآن متطابق ومتفق عليه بحرف واحد. ومن جهتي فإنني على قناعة مطلقة لا يساورها أدنى شك، بضرورة إزالة الأولى والإبقاء على الثانية، أي الإيمان بقرآن واحد كما نزل على النبي ، لا تبديل فيه زيادة أو نقصاً أو قراءة ولو بحرف واحد من حروفه. وهذا يعني، من وجهة نظري، **عدم**

---

(26) الطبري، ج1، ص14 وما بعدها.

صدق الرواية الأولى، مهما حاولنا تبجيل مدوّنيها من واضعي كتابات التراث، والكتابات الحديثة المنقولة عنها.

عاشراً/ الخلاصة:قرآن واحد

والحقيقة، فإن تعدد قراءات القرآن عند الطبري وغيره، وجد فيه أعداء الإسلام مرتعاً خصباً، يسرحون فيه ويمرحون للطعن بقرآن المسلمين، الذي يكاد يكون الشيء الوحيد المجمع عليه من قبلهم كافة. وبالمقابل، وجدوا أمة مصابة بداء كتب التراث من حيث التسليم بما جاء فيها، والتهليل والتكبير لها ولواضعيها. وبعد ذلك، وضع الوضّاعون أنفسهم أو الذين ينتمون لمدرستهم، كتبا (تراثية أيضا) تبجّل الناس الأول وترفع من شأنهم وشأن كتبهم، بحيث يحيطون بها القارئ ويطوّقونه بها في كل طريق يذهب إليه، ومن كل زاوية ينظر من خلالها. وهذا شأن أحدهم وهو الطبري الذي وضع كتاباً يطعن في القرآن على النحو المذكور سابقاً، سواء كان ذلك عن قصد (سوء نية) أو عن غير قصد (حسن نية). ثم جاء من بعده ممن ينتمي للمدرسة ذاتها، بوضع كتب تتضمن تبجيله وتفخيمه، وأجمعت على ذلك وفق ما ذكرت سابقا، وهو قليل من كثير مما كتب عنه. لذلك، وفي هذا المرتع الخصب للطعن بالقرآن الواحد كما ذكرنا، أخذت القراءات تتكاثر، *حتى قال أحدهم أنها وصلت نحو ثلاثين قراءة، وقال آخرون أنها وصلت نحو خمسين قراءة*[27]، وبمعنى آخر فإنه **"أيٌّ كلام لأيِّ ناس"**.

والخلاصة، أنه قرآن واحد بكتابة واحدة تتضمن كلمات وأحرفاً محددة، يتم النطق بأيّ وبكل منها بلفظ واحد، وهو القرآن الذي نظن بحق يصل إلى درجة اليقين، بأنه هو الذي أنزل على رسول الله ونبيه محمد (ص)، وأي لفظ آخر غير ما ورد فيه مهما صغر أو قلّ شأنه، حتى لو تعلق بحرف أو نقطة واحدة، ليس من ذاك القرآن الواحد في شيء.

د. حمزة أحمد حداد
بريد الكتروني: info@aiadr.com
عمان – الأردن
2011/8/29

---

(27) للتوسع في ذلك، يمكن الرجوع للدكتور شوقي ضيف، كتاب السبعة في القراءات لإبن مجاهد، ط 3، 1988، دار المعارف، الاسكندرية، ص 20 وما بعدها.